E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837) من خلال تقرير المقتصد المدني الفرنسي: جانتي دو بوسي (Genty de Bussy) : محاولة في رصد بدايات التاريخ الاستعماري للجزائر

The general health situation in Algeria (1830-1837) through the French Civil Economist report Genty de Bussy : An attempt to monitor the beginnings of the colonial history of Algeria

حنيفي هلايلي (*)
جامعة سيدي بلعباس، الجزائر
Hanifi Halaili
hanifi_andalous@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 24/02/2022 تاريخ القبول: 2022/03/12 تاريخ النشر: 2022/03/31

الملخص:

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على واقع الجزائر أواخر الفترة العثمانية و بداية الاحتلال الفرنسي، من خلال التقارير التي رصدها كتاب جانتي دو بوسي الموسوم بـ " المؤسسات الفرنسية في أيالة الجزائر و و سائل ضمان الرفاهية و الازدهار مرفق بعدد كبير من المستندات الداعمة ." للكتاب أهمية بمكان لدى المؤرخين المهتمين بالفترة الأخيرة للعهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، خاصة ما يتعلق بالسكان و المؤسسات العسكرية و الحركة التجارية و الجماعات الحرفية و السكان و الضرائب و الخزينة العامة و الأوقاف. عرف كتاب دو بوسي أربعة تنقيحات خلال فترات طبعه، كانت لها صلة مباشرة بنوعية الوثائق المستعملة و القرارات و المراسيم الصادرة عن إدارة الاحتلال الفرنسي ، عبر مرحلتين: ارتبطت أولاها بنشاط اللجنة الأفريقية و ثانيها بإدارة الاحتلال بشكل عام.

الكلمات الدالة:

(*) المؤلف المرسل

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

الصحة؛ الجزائر؛ الاستعمار الفرنسي؛ جانتي دو بوسي؛ تقارير.

Abstract:

This study attempts to shed light on the reality of Algeria in the late Ottoman period and the beginning of the French occupation, through the reports it monitored Genty de Bussy." De l'établissement des Français dans la régence d'Alger, et des moyens d'en assurer la prospérité, suivi d'un grand nombre de pièces justificatives ". The book is of great importance to historians interested in the last period of the Ottoman era and the beginning of the French occupation of Algeria, especially with regard to the population, military institutions, commercial movement, craft sects, population, taxes, the public treasury and Awkaf.

His book knew four revisions during its printing periods, which were directly related to the type of documents used and the decisions and decrees issued by the occupation administration. Through four phases, it was linked to the activity of the African Commission and the administration of the occupation in general.

Key Words:

The health; Algeria; French colonization; Genty de Bussy; Reports.

****

مقدمة:

يندرج الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 في اطار سياسة التوسع الاستعماري الأوروبي، الذي استفحل خطره بعد الثورة الصناعية و تزايد الحاجة إلى المواد الأولية و الأسواق التجارية، و مجالات استغلال رؤوس الأموال. فمنذ أن وطأت أقدام الاستعمار الفرنسي الأرض الجزائرية، بدأ الاهتمام بتاريخها و جغرافيتها لأغراض توسعية استيطانية، فانطلقت الكشوفات التوسعية تحت غطاء الأبحاث العلمية . لقد رصدت الدوائر الاستعمارية لهذا المشروع حشد كبير من العلماء و المغامرين و رجال الدين و العسكريين بمختلف تخصصاتهم للقيام بأبحاث حول الجزائر في شتى المجالات، و تسجيل انطباعاتهم في شكل تقارير و كتب و موسوعات، كما ساهمت جميعها في اثراء المشروع الاستعماري، بهدف ربط المستعمرة الجزائرية بفرنسا تحت شعار " الجزائر أرض فرنسية، الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا." و وفق المرسوم الملكي المؤرخ في 22 جوان 1834 وضعت الجزائر تحت نظام المراسيم، و ألحقت

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

بفرنسا و نظم إدارتها على نحو شبيه بما كان يجري في فرنسا. و قد أعلن دستور 1848 أن الجزائر جزء لا يتجزأ من الأرض الفرنسية و و عد بأنها ستوضع تحت نظام قوانين البلد الأم[1].

غزا الفرنسيون الجزائر بالسلاح و العلم، فحققوا الاحتلال و الاستعمار و الاستيطان بالسلاح و الجيوش، و حققوا نشر لغتهم و دينهم و ثقافتهم بالعلم و الاختراع. لا بد من التنويه أن معظم المؤلفات المتعلقة بتاريخ الجزائر خلال هذه الفترة كانت أولى ضحايا الاحتلال و المصادرة. و في هذا الصدد صرح أحد علماء الاستعمار الفرنسي أدريان بربروجر(Berbrugger) أحد مؤسسي الجمعية التاريخية الجزائرية و مؤسس المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة سنة 1835، ما نصه: " لقد كان لكل جندي قرآنه" ، يعني بذلك كل ورقة مكتوبة بالعربية يعثر عليها جندي فرنسي هي بمثابة شيء مقدس[2].

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتسلط الأضواء على واقع الجزائر أواخر الفترة العثمانية و بداية الاحتلال الفرنسي، من خلال التقارير التي رصدها كتاب جانتي دي بوسي الموسوم بـ " المؤسسات الفرنسية في أيالة الجزائر و و سائل ضمان الرفاهية و الازدهار مرفق بعدد كبير من المستندات الداعمة " [3]. ماذا قدم هذا الكتاب من معلومات حول الأوضاع الصحية بالجزائر أواخر الفترة العثمانية و بداية الاحتلال؟ كيف تمكنت الإدارة الاستعمارية من تدوين المعلومات الخاصة بالأمراض والأوبئة و و سائل النظافة العمومية؟

كتاب جانتي جو بوسي

ليس بخاف على الباحثين أن هذا الكتاب كانت له أهمية بمكان لدى المؤرخين المهتمين بالفترة الأخيرة للعهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، خاصة ما يتعلق بالسكان و المؤسسات العسكرية و الحركة التجارية و الطوائف الحرفية و السكان و الضرائب و الخزينة العامة و الأوقاف. و في السياق نفسه، عندما نلامس الحقيقة التاريخية من خلال هذا التقرير المقدم، فإن ما يميز التقرير من خلال الأسطوغرافيا الاستعمارية أنه عالج تاريخ الجزائر (1830 – 1954) بنظرة كولونيالية مع ارتباطه بأرشيف الإدارة الاستعمارية، و نعترف بداية بأننا لا نتوفر على معلومات كافية حول مصادر الكتاب ، و هو ما يعني أن جوانب مهمة من التقارير حول الجزائر تبدو غامضة ، خاصة ما يتعلق بالسكان و الخزينة و الإحصاءات، إذ لا وجود لمصادرها، و هو ما لاحظناه عند تصفح عديد الدراسات المشابهة لمثل هذه الأعمال[4].

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

1- من هو جانتي دي بوسي :

جانتي بيار دو بوسي فرنسي من مواليد باريس (1793-1867) . تقلد مهام مقتصد مدني ثم عسكري بالجزائر منذ 1832 إلى غاية 1860، عينته الإدارة الاستعمارية مستشاراً لوزارة الحرب منذ سنة 1835، ثم ارتقى إلى منصب مقتصد رئيسي لدى وزارة الحرب الفرنسية سنة 1839. عند عودته إلى فرنسا شغل منصب نائب عن مقاطعة موربهان (Morbihan) بشمال غرب فرنسا - مقاطعة بريطانيا- ما بين 1844-1848. كان من أشد مناصري ملكية لويس فليب التي بسقوطها أدت إلى نهاية مسيرته الإدارية و السياسية.

لا بد من التنويه هنا بما صرح به بليسييه(Pellissier de Reynaud) الذي كان موظفا في قيادة الأركان الحربية الفرنسية ، و كانت له علاقة وطيدة بجانتي دو بوسي، وحيث ترك لنا كتابه الموسوعي الموسوم " حوليات جزائرية" لقد كتب ما نصه : " سيكون متعبًا للمؤلف ، كما هو الحال بالنسبة للقارئ ، أن يكتب هنا ، ولو لفترة وجيزة ، جميع المراسيم الصادرة تحت إشراف جانتي دو بوسي. إن الكمية المعلوماتية و الإحصائية المقدمة بين أيدينا مخيفة ،فهذا المسؤول الموهوب بقلمه السيال في الكتابة و التحرير الإداري له ميل خاص في العمل المكتبي ، تعرف على الجزائر من خلال صناديقه (الأرشيف). أما الفعل الحقيقي لعمله الإداري فلا يمكن تصوره. لقد اتلفت العديد من المراسيم الخاصة بالجزائر خلال السنوات الأولى للاحتلال و هذا منذ ولادتها ، ولم يتم حتى بدء اجراءات إعدامها من قبل الإدارة. "[(5)] هذه شهادة وصف بها دو بوسي من طرف أحد أعمدة التنظيم الإداري في الجزائر المحتلة.

شارك دو بوسي في حرب اليونان مع الجيش الفرنسي بصفة مقتصد عسكري سنة 1827، ثم مبعوث دبلوماسي بنفس البلد سنة 1838. وقد عرف كتابه أربعة تنقيحات خلال فترات طبعه، كانت لها صلة مباشرة بنوعية الوثائق المستعملة و القرارات و المراسيم الصادرة عن إدارة الاحتلال بالجزائر عبر مرحلتين، ارتبطت جلها بنشاط اللجنة الأفريقية و إدارة الاحتلال بشكل عام: 1833ما بين سنوات ،1834، 1835،و 1839.

2- أهمية الكتاب العلمية و التوثيقية.

يعد كتاب المؤسسات الفرنسية في أيالة الجزائر و و سائل ضمان الرفاهية و الازدهار مصدر أساسي بالنسبة للفترة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقد جاء تأليف الكتاب بناء على

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

توجيهات اللجنة الأفريقية [6] التي كلفت بدراسة الشؤون العامة للجزائر. تكمن أهمية التقارير المسجلة في تنوير أعضاء اللجنة الإفريقية ،إمن خلال رصد معلومات إحصائية عن المؤسسات الجزائرية خلال العهد العثماني و غداة الاحتلال الفرنسي هي في غاية الأهمية. ففي 7 جويلية 1833، و باقتراح من المارشال سولت(1769-1851) Soult [7] ، عين الملك الفرنسي لويس فليب Louis-Philippe Ier، (1773-1850) لجنة متكونة من 8 أعضاء لإنجاز تقرير حول المستعمرة الجزائرية. كما أقر مرسوم ملكي أخر تعيين اللجنة الأفريقية المتكونة من 19 عضوا برئاسة الدوق دي كازيسDecazes ، حيث انتهت اللجنة بكتابة تقرير من 539 صفحة، فأصبح هذا التقرير بمثابة رأس الحربة بالنسبة للأبحاث التاريخية عند الفرنسيين حول الجزائر أواخر العهد العثماني و بداية الاحتلال.

خصت اللجنة الأفريقية الجزائر بتقرير عام مس مجالات عديدة تضمنت ما يلي[8] :

- الجوانب البحرية، العسكرية، ، الأشغال العمومية، أملاك البايليك، المؤسسات الدينية والخيرية، الخزينة، الضرائب، القضاء، التجارة، السكان .

لا بد من التنويه بكتاب دو بوسي في مجال التأريخ للمؤسسات الجزائرية أواخر العهد العثماني و بداية الاحتلال الفرنسي، و الأمر الذي أثار انتباهنا و حركنا للكتابة حول هذا الموضوع ، هو الكيفية التي عالج بها دي بوسي تقاريره ،حيث يأخذنا في رحلة عبر كم هائل من المعلومات و الإحصاءات، من دون ذكر مصادرها. و الحقائق التي نسجلها من واقع تصفح مجلدات التقارير المرصدة أنها جاءت مجردة من دون أية تعليقات أو تفاسير. و لا يخفى ما يمكن أن تمثله هذه النصوص الوثائقية التي احتفظت بها هذه التقارير من رصد لعديد القضايا في المستعمرة الجزائرية بداية الاحتلال ، حيث سمى الفرنسيون الفترة الواقعة بين (1830-1834)بعهد التردد و التقلبات و الفوضى كما سماها أجيرون[9] .لذلك أرسلت فرنسا اللجنة الأفريقية بغرض التحقيق، فأوصت هذه الأخيرة بالإبقاء على الجزائر، و بناء على توصياتها أقرت الحكومة الفرنسية بإصدار قرار 22 جويلية 1834 الذي اعترف بالاحتلال كحقيقة حتمية، و الذي نص على انشاء منصب حاكم عام عسكري لإدارة الممتلكات الفرنسية في افريقيا الشمالية، فكان الجنرال درويت ديرلون أول حاكم عليها. و أعلن قرار 1834 بأن

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

الجزائر" أرض فرنسية".و أصبحت الإجراءات شرعية بدستور 1848 الذي أعلن أن الجزائر تشكل جزء مكملا لفرنسا[10].

لا شك أن كلا الخطوتين : قرار سنة 1834 و تصريح دستور 1848 كانا حجر زاوية في العلاقات الجزائرية – الفرنسية ، و كلا التشريعين في حقيقة الأمر جعلا من الجزائر " أرض شاغرة" ، مع ما يستلزمه الأمر في طمس و إزالة الشخصية الوطنية للجزائريين. إن البحث في كتابات دي بوسي تستدعي منا يقظة خاصة، و استحضارا لمعلومات كثيرة، خاصة عندما نتصفح دفتي المجلدين على النحو الآتي:

تطرق دو بوسي في المجلد الأول إلى قضايا منهجية ، وقد طرح في هذا السفر التوثيقي عديد التساؤلات حول مستقبل و مصير الاحتلال الفرنسي للجزائر ؟ و هل سيظل الاحتلال الفرنسي متمركزا فقط على المدن الساحلية ؟ و ما هو شكل الإدارة و أليات الاحتلال ؟ وهل سيكون النظام الاستعماري عسكري، أم استيطاني؟ و ما هي طبيعة النظام الاستعماري الذي سيطبق على الجزائر؟. حاصل القول أنه ركز على الاحتلال الشامل للجزائر، و هو الأمر الذي توصلت إليه اللجنة الأفريقية حيث لا مس المجالات التالية: السياسة، الجوانب العسكرية، والبحرية، والزراعية، والصناعية، والتجارة، والمالية، و أشكال نظم الإدارة و نمط تسييرها.

يقع الكتاب في جزأين، اشتمل المجلد الأول على ثمانية أقسام، و اثنتان و ثلاثون فصلا. حمل كل قسم و فصل عنوانا خاصا. كما ضم الكتاب مجموعة أرقام و تواريخ و بيانات احصائية مهمة. تناول في الجزء الأول، المسائل العسكرية و البحرية و التطرق إلى الزراعة و الظروف المناخية و نوعية التربة، ثم انتقل إلى تفصيل المؤسسات الدينة و الخيرية المتواجدة بمدينة الجزائر .و درس الصناعة و التجارة و الخزينة مركزا الحديث على أهم الحواضر الجزائرية. لينتهي الجزء الأول بالولوج في عالم الإدارة الجزائرية خلال العهد الثماني و آلت إليه بداية الاحتلال، و علاقة الفرنسيين بالسكان.

و في خاتمة كتابه سرد لنا دو بوسي كم هائل من المعلومات التاريخية عن أيالة الجزائر ،و عرف بأهم الشخصيات التي كانت تحكم الجزائر خلال الفترة العثمانية ، والتي كانت لها أدوار مصيرية في الجزائر على المستويين السياسي و العسكري.

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

خصص المؤلف الجزء الثاني بجداول بلغت مائة و أربعون (140)جدولاً، و ضممه بوثائق في غاية الأهمية ، لا يمكن للباحث في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال الاستغناء عن مضامينها ، هذه التقاطعات في المجلات و حجم المعلومات التاريخية، المشفوعة بالإحصائيات و لغة الأرقام المرتبطة بالجزائر، سيما ما يتعلق بذكر بنود معاهدة استسلام مدينة الجزائر في 5 جويلية 1830 و الممضاة ما بين الطرف الجزائري (الداي حسين) و الطرف الفرنسي(دي بورمون)، و احصاء عام لقبائل مقاطعات الجزائر و وهران و عنابة، و خصائص المذهبين في الجزائر : المالكي و الحنفي، و يهود الجزائر و تنظيماتهم الاجتماعية[11]، كما تتبع دي بوسي مصير الأوقاف الإسلامية ، و تعرض لدراسة أحوال المناخ و الحمامات المعدنية المنتشرة في ربوع الجزائر، و جيولوجية الجزائر ،كما خص تقريره ذكر عرائض أعيان الجزائر للسلطات الفرنسية خاصة في مدينة الجزائر[12] .

شملت الوثائق المنشورة في الكتاب قضايا ركب الحج و الثقافة و أهم الكتب المنتجة في الجزائر ابان الفترة العثمانية. تعد هذه الوثائق بمثابة حجر الزاوية في التعامل الفرنسي مع الواقع الجزائري في شتى المجالات. و من ضمائم الكتاب ، تقديم حوصلة معرفية عبارة عن جداول احصائية ، شملت الملفات التالية:

- احصاء السكان في مدن الجزائر (وهران، مستغانم، الجزائر، بجاية، عنابة).
- التنظيمات الفرنسية الجديدة.
- حركة الموانئ الجزائرية.
- الأوقاف و المؤسسات الخيرية.
- نظام القضاء و جهاز العدالة.
- الخزينة و الضرائب.
- الثكنات و الجنود الفرنسيين.
- سجل المواليد و الوفيات في وسط العنصر الأوروبي.
- المصالح الصحية و الأمراض و المستشفيات.
- الوثائق و العقود المحررة من طرف أهالي مدن الجزائر من مسلمين و يهود.

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

- حالة التطيب.
- عقود الزواج و الطلاق عند يهود الجزائر.

3- المحطات و المحاور المتعلقة بالوضع الصحي في الجزائر.

مما سبق ، يتضح أن دو بوسي تعرض في الجزء الأول من الكتاب،في الفصل السادس إلى نظام الحجر الصحي الذي عنونه بـ نظام الكرنتينة[13]. إن أدب الكرنتينة يكشف لنا عن ردود فعل هذا الفكر تجاه أهم المستجدات التي كانت تعرفها الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط، من البداية لا بد أن نذكر أن أوروبا قد بدأت في اعتماد التدابير الصحية الوقائية منذ نهاية القرن الرابع عشر ، إذ وحدت سياستها في هذا الميدان منذ عام 1851 بعد عقد أول مؤتمر صحي بباريس .

إن الكرنتينة هي مدة الحجر الصحي، و أصلها لا تيني مشتقة من اللغة الإسبانية(Cuarantena)أي مدة أربعين يوما. وهو نظام احتماء تلتزمه الدول الأوروبية ، إذ تعتمد في هذه العملية على الوكلاء و القناصل المتواجدين في البلدان المتوسطية ، وظيفتهم كتابة التقارير المفصلة حول هذه الأعراض[14]. و الجدير بالإشارة أن فرنسا كانت تفرض حصارا على كل من يخبر بوجود و تطور الوباء، وذلك خوفا من تعطل مصالحها التجارية. ففي رسالة مؤرخة في 30 أبريل 1753 ، تخوف قنصل فرنسا أندري لومير André-Alexandre Lemaire(1749-1756) ، يخبر فيها نواب الغرفة التجارية بمرسيليا بأنه يهدد بالقتل من أخبر الأوروبيين عن تفشي الوباء و عدد الضحايا بالميناء[15]. و ما حصل في عنابة التي كانت لها علاقة بالنشاط التجاري الفرنسي ممثلا في الشركة الملكية الأفريقية و علاقتها بميناء مرسيليا، إذ اجتاحتها سلسلة جارفة من الوباء ما بين سنوات 1756-1786م.

إن تدبير صحة البدن، مرتبط بأحوال الجسد في النوم و اليقظة، فالطب حسب ابن خلدون وضع لغايتين: هما حفظ صحة بدن الإنسان و زوال أمراضه . لقد عبر ابن خلدون عن :" أن كثرة الأغذية، و كثرة الأخلاط الفاسدة العفنة و رطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة...."[16].ومن الواجب على الإنسان دفع الأذى عن نفسه باليد و السلاح و الوقاية من الأوبئة و استعمال الدواء.

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر بداية الاحتلال إلى فرض نظام الكرنتينة(الحجر الصحي)، كإجراء صحي وقائي، بالرغم من المناخ الصحي الذي تتمتع به الجزائر ،إلا أنها كانت عرضة لأمراض مختلفة لعل أخطرها داء الطاعون. و الجدير بالإشارة هنا أن معظم الأوبئة التي تعرضت لها الجزائر خلال الفترة العثمانية كانت تأتي عن طريق البحر بواسطة السفن القادمة من أماكن مصابة و ترسو بموانئ الجزائر. كما كان سكان الجزائر يتمتعون بصحة جيدة باستثناء القاطنين بالقرب من المستنقعات و الأماكن الحارة ، ممن يتعرضون لوباء الطاعون[17]، و الجدري[18] ،لذلك فرضت فرنسا نظام الحجر الصحي ، و قلصت مدته في موانئ الجزائر من 25 يوما إلى 7 أيام ، كي لا يؤثر على الحركة التجارية ، متخذة في ذلك اجراءات ردعية للوقاية و الاحتراز سيما ما يتعلق بالسلع و الأفراد على طول سواحل الجزائر و شواطئ فرنسا. كان الهدف من هذا الانتفاع بتجارب الأوروبيين و تقليدهم في نظام العزل الصحي" الكرانتينة" عملاً بمبدأ الوقاية خير من العلاج.

لا بد من الإشارة في هذا السياق أن حمدان خوجة حينما تحدث عن المحتل الفرنسي لأرض الجزائر ذكر أن الوباء لم يلج صفوفهم، لأنهم: " حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه: من الاحتماء و الاحتراز بالاستقرار في عدم إدخال الداخل إليهم، إلا بعد تحقيق البراءة و الاستبراء، وجعلوا في ذلك حكاما في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط، وسموا ذلك كرتينة."[19].

أصبحت كل من الجزائر و عنابة، و وهران تحت رقابة الشرطة الاستعمارية، و مدن جزائرية أخرى، حيث قامت السلطات بتنبيه السكان بضرورة التخلي عن عقيدة التعصب و اللامبالاة و الجهل بخطورة تفشي ظاهرة الوباء، مع اتخاذ كافة وسائل و احترام اجراءات الاحترازية ، وهو الأمر الذي فرض على الجمارك الفرنسية تسليم رخص للسلامة المرورية في موانئ الجزائر و فرنسا[20]. و يتضح مما ورد سابقاً أن دي بوسي ثمن جهود الأوروبيين في مكافحة الأوبئة ، و القضاء عليها من خلال:

- قلة انتشار الأوبئة بسبب التطعيم.
- استعمال وسائل الوقاية و الاحتراز مع احترام قواعد الحجر الصحي.
- اجتياح السلم في أوروبا و قلة الحروب[21].

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

استدل دو بوسي بكتب التاريخ الجزائرية(مخطوطات في معظمها زمنئذ) و بشهادات شيوخ و أعيان المدن و بعض القناصل الأوروبيين الذين عاصروا الحكم العثماني بالجزائر، مثل قنصل السويد Schult ، و قد بحث عن الأسباب الحقيقية في قلة انتشار الأوبئة في الأراضي الجزائرية، حيث أرجعه إلى عوامل عديدة أهمها:

- عدم خطورة الوباء في المنطقة.
- صفاء المناخ، باستثناء الرطوبة و الحرارة في مناطق انتشار المستنقعات و البرك المائية، حيث تسود الحمى.
- لم ينتشر الوباء قط بالجزائر من داخلها، بل كان يأتيها غالبا عن طريق البحر[22].

عندما انتشر خبر الوباء في تونس أواخر العهد العثماني، انقطعت الصلات البحرية مع الجزائر، و مع تونس عن طريق البر أيضا. وفي أيام الإدارة الفرنسية أصبح الحجاج يسافرون عن طريق البحر، أما القوافل فلا تمر بمدينة الجزائر. إن مسألة الحجر الصحي أصبحت من اختصاصات سلطة المرافق العمومية، و أنه وجب على الإدارة تقليص مدة الحجر كما هو معمول به في موانئ أوروبا. ففي 30أكتوبر 1833، اجتمعت لجنة الصحة بمدينة الجزائر بطلب من المقتصد المدني الذي راسل بدوره وزير الحرب الفرنسي، ليخبره عن قيمة التوازن في مجال الحجر الصحي بالنسبة للسفن القادمة إلى الجزائر و الذاهبة نحو فرنسا، حفاظا على المصالح التجارية [23].

من بين أهم القضايا التي تطرق إليها دي بوسي في كتابه، موضوع انتشار الوباء في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي. لقد ذكر أن الجزائر تعرضت لسلسلة من الأوبئة ، خاصة وباء الطاعون الذي كان يحصد الألاف من الجزائريين ، حيث كانت بؤره تأتي من خارج الجزائر، أي من جهة البحر عن طريق السفن.إن طاعون 1817 الذي استمر إلى غاية 1818، أدى إلى هلاك ما بين 13 و 14 ألف نسمة، و اعتبره أمر كارثي بالنسبة لصحة سكان مدينة الجزائر. و استطرد الحديث حول انتشار الأوبئة ليذكر بوباء ثان ما بين 1820 و 1822، الذي انتشر كالهشيم في دواخل الجزائر مرورا بالبليدة حتى وصل إلى بسكرة و منطقة الزيبان، و لاحظ أن تكرار انتشار الوباء ، له علاقة بقدوم السفن من الإسكندرية و أزمير و بلاد الشام ، مما تسبب في انتشار العدوى[24].

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

أما بالنسبة لركب الحج، فإن الجزائريين كانوا يسافرون عن طريق البحر إلى مصر، و يلبسون ثياب بسيطة بيضاء و لا يأخذون معهم البضائع الثمينة معهم، و تجدر الإشارة هنا ، أن دي بوسي أشار في تدوين ملاحظاته إلى طرق تنقل الجزائريين للحج و التجارة عبر المحطات التالية:

1- عن طريق البر بواسطة القوافل عبر مدن ثلاث: وهران، الجزائر و عنابة.
2- الحجاج يركبون البحر في معظم الحالات.
3- القبائل المتاخمة للحدود مع تونس و المغرب، تتواصل من أجل المقايضة بالبضائع ة الغذاء.
4- لا توجد أسواق في الجزائر للتبادل مع مصر، كما لا توجد حركة تجارية برية بينهما.
5- انتشار الوباء عند سكان المرتفعات و في الأطلس جاء جراء الاتصال بسكان السواحل.
6- لم يأتي الطاعون من داخل الجزائر، فهو في الغالب يأتي من الخارج[25].

ومما تجدر ملاحظته عند تعرض دي بوسي إلى ذكر اجتياح الطاعون في البلاد الجزائرية عبر فترات زمنية مختلفة ، ذكر أن البوادي و مدن الصحراء لم تنجو من هذا الوباء ، وهي ظاهرة دقق فيها بالأرقام و الإحصاءات، ومما يدل على ذلك حرص الإدارة الاستعمارية على تفادي حدوث اجتياح أوبئة بالجزائر مستقبلاً على غرار الفترة العثمانية ، مع مراعاة القيام بالإجراءات الاحترازية اللازمة سيما في موانئ مدن الجزائر. إن النظام الحمائي والاحترازي لعب دور الحزام الوقائي من الأمراض والأوبئة الآتية من مختلف الموانئ المتوسطية ، وبالرغم من إعاقته للأنشطة الاقتصادية ،خاصة ما يتعلق بحركية التجارة الخارجية إلا أنه بقي أنجع وسيلة للحفاظ على البيئة الصحية للجزائر من الأمراض خلال الفترة الإستعمارية.

عرف اقليم مدينة الجزائر ثلاث فترات متعاقبة شهدت انتشار الوباء بشكل لافت للنظر:

1- وباء 1784-1788: اعتبر أطول و أخطر الأوبئة التي شهدتها مدينة الجزائر، حيث كان من نتائجه تقلص عدد سكان المدينة بسبب كثرة الوفيات، و التي قدرتها المصادر ب، 16.721 نسبة، شملت المسلمين و اليهود و المسيحيين على حد سواء[26].
2- وباء 1793-1804: تسبب هذا الطاعون في هلاك الألاف من سكان مدينة الجزائر

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

و ضواحيها بسبب فرار الناس إلى الأرياف، مما تسبب في تعطل الحياة العامة للمدينة، و في سنة 1797 ، كان الطاعون يحصد يوميا ما بين 20 و 25 ضحية [27].

3- وباء 1816-1822: تميز هذا الوباء باتساع نطاق انتشاره في كامل أرجاء الجزائر، و استمر سبع سنوات، فتعرض السكان لحالة الفقر، و اتلفت المحاصيل الزراعية بسبب الإهمال، و تكاثرت الوفيات، و من بين من هلك بالطاعون الداي علي خوجة في 28 فبراير 1818 [28].

كانت الأوبئة تنتقل إلى الجزائر عن طريق الحجاج و المجندين من الأناضول و التجار القادمين من المشرق، و حسب رواية الزهار: " عندما بلغت المراكب المهداة من استانبول جاء معها الوباء إلى الجزائر و اشتعلت ناره سنة 1817، و كان الوباء يتسرب إلى الجزائر في غالب الأحيان عن طريق البحر، لذا نجد أول من كان يصاب به هم عمال الموانئ و بعد ذلك ينتشر في بقية أنحاء البلاد. [29] " . و نستشف من رواية الزهار، ما أشار إليه الجاسوس الفرنسي بوتان (Boutin) عندما أوكلت له عام 1808 مهمة وضع تقرير استخباراتي مفصل عن الجزائر بغية التعجيل باحتلالها، فذكر بأن الطاعون لم يكن ناتجا عن البيئة الجزائرية ، لأنه كان يأتي دائما من المشرق [30].

لئن كان الباحث المهتم بتاريخ الجزائر أواخر الفترة العثمانية و بدية الاحتلال الفرنسي، يظفر بعدد لا بأس به من المصادر التوثيقية ، إلا أنها للأسف ليست متكافئة في القيمة المعرفية و المنهجية. و هكذا يقوم التاريخ ، كما يقول المؤرخ الفرنسي سينوبوس(Charles Seignobos)[31] على الوثائق، و هي المدونات التي سجلت أفكار الماضي المادية و اللامادية، وهي بالنسبة للمؤرخ من السجلات و الملفات التي تعالج شئون الحياة (سجلات إدارية و قضائية، و حسابات مالية ، و مراسلات).و بصرف النظر عن القيمة الحقيقية لهذا المؤلف ،فإنه يجب أن يقوم على ضوء المعلومات التي تضمنها و ما إذا كانت قد وصلتنا من وثائق و مصادر أصلية مباشرة.

لعل أجل الخدمات التي قدمها المقتصد الفرنسي دو بوسي للمؤرخ و الأبحاث التاريخية المهتمة بالأمراض و الوقاية من تفشي الأمراض الفتاكة، هي مساعدته على تقديم تعميم و تصور عام عن الجزائر أواخر الفترة العثمانية و بداية الاحتلال الفرنسي في مجال الصحة

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

و التطبيب. و لا بد لدارس تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة الحرجة، أن يحتاط و يعرف كيف يستخدم التقارير الفرنسية في استقراء الحقائق التاريخية في معالجة تاريخ الجزائر.

تجدر الإشارة أن التقارير المدونة من طرف دو بوسي شملت المياه المعدنية الساخنة و الحمامات ، المنتشرة في الجزائر خاصة حمام الملونين جنوب البليدة و المتواجد في أراضي قبيلة بني خليل، حيث تقدم مياهه خدمات جليلة لمعالجة عديد الأمراض المعدية و الاستشفاء من داء الروماتيزم و التشنجات العضلية؟ و قد استفاد منها السكان المحليين و الجند الفرنسي، حسب ما أشار إليه دو بوسي [32].

خاتمة

في خاتمة هذا البحث التاريخي الذي قد تطرق بالتفصيل إلى تحليل كتاب جانتي دو بوسي المتعلق بأوضاع الجزائر خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ ومن خلال البيانات الإحصائية و الأرقام التي سجلها هذا المقتصد المدني؛ تمكّنا رصد جوانب مهمة حول الوضع الصحي بالجزائر و علاقته بنظام الكرنتينة ،كما تكمن أهمية هذا التقرير العام في أنه ألم بجوانب عديدة لمختلف قضايا الجزائر أوائل الاحتلال.

تجدر الإشارة في الأخير إلى أن هذا المصدر له من الأهمية بمكان في معظم الدراسات التي تناولت تاريخ الجزائر خلال هذه الفترة و التي شملت الجوانب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية. إن الحقائق التي دونها هذا الكتاب، تعد مصدر مهما للبحث التاريخي الذي يشهد على جزء من اللحظة التاريخية التي عاشتها الجزائر المستعمرة.

الإحالات:

(1) شارل روبير،أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة، ط 2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،1982، ص 47.

(2) أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، القسم الأول، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992، ص 81.

(3) Genty de Bussy, Pierre, De l'établissement des Français dans la régence d'Alger, et des moyens d'en assurer la prospérité, suivi d'un grand nombre de pièces justificatives, Paris : Firmin Didot, 1835, 2 Tomes.

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

(4) اعتمدت دراسات أكاديمية على كتاب جانتي دو بوسي ، منها : ناصر، الدين سعيدوني،
- النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني(1792-1830)، ط 3، الجزائر: البصائر للنشر و التوزيع، 2012.
- الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر(دار السلطان)، أواخر العهد العثماني (1791-1830).ط ،خاصة، الجزائر: البصائر للنشر و التوزيع،2013

(5) Pellissier de Reynaud, Annales Algérienne, Paris, Libraire militaire, Alger, Libraire Bastide, 1854, T.1, pp.233-235.

(6) في 2 سبتمبر 1833 وصلت اللجنة الافريقية التي وافق على تشكيلها الملك الفرنسي لويس فيليب الى الجزائر و التي كانت مهمتها جمع المعلومات المختلفة عن حالة الجزائر و بناء تصور حول مستقبلها و قد تم ذلك تحت غطاء تحقيقات عن الوضعية العامة في الجزائر. عن أعمال اللجنة و قيمة إنجازاتها حول الجزائر بداية الاحتلال الفرنسي ، يرجى مراجعة:

Xavier, Yacono," La Régence d'Alger e, 1830 d'après l'enquête des commissions de 1833-1834", In, Revue des mondes musulmans et de la méditerranée, 1966, n°1, pp229-244/ n°2, pp.227-247

(7) وزير الحرب و تقلد منصب رئيس الحكومة الفرنسية ثلاث مرات متتالية، و مارشال عام لفرنسا في عهد لويس فليب. مؤسس وحدات اللفيف الأجنبي بالجزائر

(8) سجل التقرير بتاريخ 10 مارس 1834. للمزيد حول تقارير الجنة، ينظر:

La commission d'Afrique, instituée par ordonnance du roi du 12 Décembre 1833, Paris ,Imprimerie Royale,1834.

(9) شارل روبير،أجيرون، المرجع السابق، ص 21.

(10) أبو القاسم، سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال، طبعة خاصة، الجزائر: عالم المعرفة، 2011، ص ص 97-131.

(11) قدم دي بوسي صورة قاتمة عن أوضاع يهود الجزائر خلال الفترة العثمانية، و ركز على تنظيماتهم الاجتماعية و الدينية و التجارية ، و علاقتهم بالسلطة العثمانية و تعاملهم مع السكان، كما أنهم رحبوا بالاحتلال الفرنسي و آمنوا بمبادئ فرنسا في مجال الحقوق و المساواة. ينظر:

Genty de Bussy, op.cit, pp.115-119.

(12) بدأت المقاومة الجزائرية منذ بداية الاحتلال بتأسيس لجنة المغاربة بزعامة حمدان خوجة، و ضمت أعيان الجزائر كانون يطوفون في المقاهي
و الأسواق ، منادين بطرد الفرنسيين شجعت هذه اللجنة شكاوي الشعب الجزائري، فبعثت اللجنة بنداءات، و عرائض إلى السلطات الفرنسية في الجزائر و في فرنسا. مطالبة بالجلاء للجيش الفرنسي. ينظر:

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني: 1900-1930، ط 3، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1983، ص ص 27-36.

(13) Genty de Bussy, op.cit, p.149

(14) حدادي، أحمد ،أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية، مجلة كنانيش،ط1 ،ع 3،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب الأقصى، صيف-خريف2001، هامش: 33 ص45.

(15) أمين، محمد، الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر خلال العهد العثماني(1518-1830)،ط1،الجزائر: كوكب العلوم 2016،ص 56.

(16) ابن خلدون، المقدمة، (تحقيق و تعليق: عبد الله محمد الدرويش)، 1425هـ/2004م،دمشق، دار يعرب، ص ص 196-200.

(17) الطاعون هو من القاتلة التي يسببها إنتروبكتريسا يرسينية طاعونية، الذي سمي على اسم عالم البكتيريا الفرنسي السويسري ألكسندر يارسين (Alexandre yarcine) (1863-1943). ينظر:
Genty de Bussy, op.cit, p.162.

(18) تشير بعض الدراسات أن منطقة شمال أفريقيا كانت تعرف هذا الوباء منذ حوالي ثلاثة ألاف سنة، و أنه كان يعاود كل أربع سنوات و أخطره كان سنة 1804 الذي أودى بحياة ألفي نسمة من سكان مدينة الجزائر، يراجع:
Boutin,Y, Reconnaissance des villes ,forts, et batteries, Publié par G.Esquer,Paris,1927,p.67.

(19) حمدان، خوجة، إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس عن الوباء (تقديم و تحقيق: محمد بن عبد الكريم)،الجزائر: الشركة الوطنية للنشر
و التوزيع 1968. ص ص 45-46.

(20) Genty de Bussy, op.cit, p.150.

(21) Ibid, p.152.

(22) Ibid, p.154.

(23) Ibid. pp.155-158.

(24) Ibid., p.166.

(25) Idem.

(26) سعيدوني، ناصر الدين، اقليم...، المرجع السابق، ص 328.

(27) , Adrien, Mémoire sur la peste en Algérie depuis 1552 jusqu'au 1819, manuscrit, n°3305, Bibliothéque nationale, Algérie, F, 68.

(28)) سعيدوني، ناصر الدين، اقليم...، المرجع السابق، ص 329.

hwmut, DOI : 10.54242/1702-013-001-023

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X

الوضع الصحي العام في الجزائر (1830-1837)
هلايلي حنيفي، المجلد الثالث عشـر، العدد 1، مارس 2022،
ص ص 282-297

---

(29) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر،(تحقيق: أحمد توفيق المدني)، الجزائر، دار البصائر 2009، ص 78.

(30) Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger par le chef de bataillon Boutin (1808) suivie des mémoires sur Alger par les consuls de Kercy (1791) et Dubois-Thainville (1809) / publiés par Gabriel Esquer, Paris : H. Champion, 1927, p.67

(31) Seignobos, Charles, la méthode historique appliquée aux sciences sociales, Paris Félix Alcan, 1901, pp.18-20

(32) Genty de Bussy, op.cit, T.2.pp.54-56.